في تفكيك ظاهرة العنف فلسفيا

Philosophically dismantling the phenomenon of violence

د.الشريف زروخي*

تاريخ الإرسال: 2020/01/24	تاريخ القبول: 2021/05/05	تاريخ النشر: 2021/09/15

الملخص:

نتطرق في هذه الدراسة إلى ظاهرة العنف التي تنتشر بسرعة في كل المجتمعات المعاصرة، حيث لا يوجد مجتمع تمكن من تحصين نفسه من هذه الظاهرة، مستندين على بعض الأطروحات الفلسفية في عملية التفكيك، لأننا نعتقد بانَّ العقل الفلسفي يملك أدوات نقدية تمكنه من التعامل مع القوى المنتجة لكل أشكال التطرف، كما يستطيع فضح كل محاولات شرعنة العنف بدعوى الدفاع عن الهوية والخوف على تفككها، مما يعني أن المجتمع الدولي أمام تحديات وجودية لتقليص الدوائر المسؤولة عن انتاج العنف، كما أن البشرية مطالبة بإعادة تأسيس الثقافات على مبدأ التسامح والحوار والتواصل في أفق إتيقي.

الكلمات المفتاحية: العنف، تفكيك، الحوار، التواصل، الكوني.

Abstract:

In this article, we try to dismantle the phenomenon of globalized violence by relying on some philosophical theses, because the philosophical mind is characterized by its ability to dismantle the phenomenon and reveal the active forces, and the phenomenon of violence in the name of the sacred is no longer restricted to a specific society as much as it has become a global phenomenon, which means that .

المؤلف المرسل: الشريف زروخي cherifz@outlook.fr

* جامعة محمد لمين دباغين سطيف2.البريد الالكتروني cherifz@outlook.fr

society The international community faces existential challenges to reduce the circles responsible for producing violence, and mankind is required to re-establish cultures based on the principle of tolerance, dialogue and communication in an ethical horizon.

***Key words**: Violence, Dismantling, Dialogue, Communication, Cosmic.*

*** *** ***

مقدمــة:

إنَّ الوضع الذي آلت إليه المجتمعات المعاصرة وضع قلق صار عنوانه العنف والتعصب والإرهاب، يقتضي هذا الوضع من كل مفكر جاد ومسؤول التفكر فية من زاوية عقلانية بعيدا عن القراءات الأيديولوجية التي زادت الوضع تأزما، وبحكم أنَّنا ننتمي إلى حقل الفلسفة فإنَّنا سنعمد إلى استدعاء بعض الأطروحات والنصوص التي تساعدنا على فهم ظاهرة العنف بكل تمظهراتها الفكرية والدينية والسياسية، والمعروف عن العقل الفلسفي تناوله للظواهر في أفق تاريخي من زاوية نقدية تفكيكية، فهو الأقدر في اعتقادي على التموضع داخل الظاهرة لفضح القوى الفاعلة والفعلية، لأنَّ القوى المحركة لا تظهر على السطح بلغة "ميشال فوكوMichel Foucault "(1926 -1984 م).

ومن بين الفلاسفة الذين سنستأنس بهم في دراستنا هذه الفيلسوف الفرنسي "فولتير Voltaire " (1694-1778م) بكونه فيلسوفا تأسيسيا تناول ظاهرة التعصب الديني والفكري الذي عرفته المجتمعات الأوروبية، كما كان له إسهام معتبر في تحول أوروبا من ضيق العنف إلى أفق الحوار والتعايش المشترك والاعتراف بالمختلف، ونستدعي كذلك أطروحة الألماني "يورغن هابرماسJürgen Habermas "من مواليد(1929/06/18م) وبعض أطروحات مفكرينا العرب أمثال "محمد عابد الجابري"، لكن ليس الغاية من التفكر مع الفلاسفة أو ضدهم مجرد اعادة وتكرار أقوالهم وإنمَّا هدفنا الاستئناس برؤيتهم لفهم واقعنا والعناصر المكونة له، لأنَّنا ننتمي إلى واقع له اشتراطاته السوسيوثقافية والتاريخية

لا يمكننا تجاهلها، وقد نبهنا فيلسوف الهيرمينوطيقا" هانز جورج غادمير Hans-Georg Gadamer"(1900-2002م) إلى ضرورة وعي أشكال حضور الماضي في الحاضر[1].

سيكون تحليلنا لظاهرة العنف في المجتمعات المعاصرة مرتكزا على أطروحة "فولتير" لهذا نتساءل عن آليات تعميق فكرة التسامح بمعناه الفلسفي والسياسي لتتمكن المجتمعات المعاصرة من التحول من ضيق التعصب والعنف إلى أفق التعايش المشترك في ظل الاختلاف؟

أولا: فولتير وإعادة بناء دلالة مفهوم التسامح في أفق فلسفي وسياسي:

يعد الفرنسي "فولتير" Voltaire"(1694-1778م) من بين الفلاسفة الذين عملوا على تعميق فكرة التسامح(La tolérance) إيمانا منه بأنه الحل والآلية التي تمكن المجتمعات من مواجهة ما يسميه بالتمزق الذي أصابها بسبب التعصب الغبي[2]، رغم أنَّ العقل الفلسفي قد بدأ في رسم طريق مختلف تماما، إنَّه طريق الأنسنة(humanisation)، لكن لابد من مخاض اجتماعي ليتم التحول الجذري إلى وضع عقلاني، لأنَّ المغالاة في التدين تؤدي إلى التطرف وارتكاب جرائم ضد الإنسانية، لهذا ضرورة إعادة النظر في النصوص الدينية من زاوية فلسفية[3]. وهذا الشعور تشكل منذ عصر النهضة(Renaissance) والذي بدأ بالإصلاح الديني رافضا لكل أشكال التعسف والظلم باسم الدين أو سلطة لاهوتية، وقد بدأ "فولتير" رسالته في التسامح بسؤال تشكيكي: هل التسامح خطر؟ وما هي الشعوب القادرة على تطبيقه؟[4]ويبدأ فولتير تحليله وقراءته بطرح أسئلة حول ماهية التسامح وإمكانية أن يكون سبيل التعصب والتطرف والعنف؟ كما يتساءل عن إمكانية تكرار تجربة العنف والاضطهاد في المستقبل؟

شكك "فولتير" في قدرة العقل رغم تقدمه على تجنيب البشرية مآسي العنف والإرهاب، ولم يكن "فولتير" مخطئا في اعتقادي لأنَّ البشرية ارتكبت جرائم أبشع من تلك التي شهدها

"فولتير"(الحربين العالميتين)، ولا تزال البشرية مغرفة في العنف، فكلما مضت في التاريخ كلما طورت وسائل دمارها، واليوم صار العقل أخطر وسائل العنف، وإذا كان "فولتير"يأمل في تقليص دوائر العنف تحت تأثير المؤسسات المدنية التي تعمل على تهذيب السلوك وتشكيل الوعي والضمير بخطر استمرار العنف، فإنَّ السؤال المسؤول هو كيف نؤسس للتسامح في مقابل العنف؟ يرى "فولتير" بأنَّ فعل التأسيس لا يتم على أرضية تصفية الحسابات مع من أخطئوا في الماضي وارتكبوا جرائم حرب، فهذا في نظره"ضرب من الجنون"[5].

وهذا الموقف هو الذي تبناه الفيلسوف الفرنسي "بول ريكور Paul Ricoeur"(1913-2005م) فيما بعد، والذي دعى هو الآخر في الكثير من أعماله إلى ضرورة اعادة تأسيس الثقافات البشرية على مقولة الاعتراف، وخاصة ما تعلق بالذاكرة المجروحة(Mémoire blessée)، لأنَّ البشرية لا يمكنها التحول إلى التعايش المشترك إلا إذا تصالحت مع الذاكرة المشتركة(Mémoire collective)، والتصالح يعني الاعتراف بالمسؤولية اتجاه الضحايا، أما الانتقام ومحاولة تصفية الحسابات مع من ارتكب الجرائم في الماضي فيعطل تاريخ البشرية[6].

ينبغي في نظر "فولتير" عدم مواجهة العنف الذي يمارس باسم الدين بعنف مضاد، والتاريخ يشير علينا أنَّه تم ارتكاب جرائم باسم اللاهوت في انجلترا وفرنسا وألمانيا وهولندا، لكن تمكنت المجتمعات الأوروبية من الخروج من ضيق العنف والإقصاء بفعل ثلاثة عوامل رئيسية في نظر "هاشم صالح" وهي:

أولا: انفتاح أوروبا على العالم الآخر المختلف ثقافيا وفكريا وعقديا.

ثانيا: انتشار النزعة الإنسانية والعقلانية والفردانية.

ثالثا: الاصلاحات الدينية العميقة[7].

وبفضل الفلاسفة والأدباء والفنانين تحولت الصراعات إلى تعايش في ظل المختلف، يقول فولتير:"إنَّ تباين الأديان ما عاد اليوم يتأدى إلى حدوث اضطرابات وقلاقل في تلك الأقطار، فاليهودي، والكاثوليكي، والأرثوذكسي، واللوثري، والكالفني، وداعي تجديد المعمودية، والسوسيني، والمينوني، والمورافي، وسواهم، غدوا يعيشون بتآخ في تلك الأقطار، ويساهمون على قدم من المساواة في خدمة مجتمعهم"[8].

إذن سوء فهم مقاصد النصوص الدينية أو الادعاء بتطابق الفهم مع تلك المقاصد الإلهية يؤدي إلى العنف، لهذا نعتبر العقل النقدي هو الوحيد القادر على أن يحول دون العنف باسم الدين، وقد أشاد "فولتير" بقدرة الدولة العثمانية على خلق فضاء لتعايش الأديان دون تعصب، يقول:"إنَّ الإمبراطورية العثمانية تحتضن أعدادا كبيرة من اليعاقبة، والنساطرة والقائلين بالإرادة الواحدة، وهي تضم أيضا أقباطا، ونصارى من أتباع القديس يوحنا، ويهودا، وزرادشتيين، وبراهمانيين، وبالرغم من هذا المزيج، لا تشير الحوليات التركية إلى أي فتنة حرض عليها دين من تلك الأديان"[9].

كما يشير "فولتير" إلى الكثير من المجتمعات والحضارات التي عرفت التسامح مثل بلاد الهند وفارس، وكذلك الصينيين الذين آمنوا برسالة نوح عليه السلام، وهي رسالة كونية توحيدية ورغم ذلك تعايشوا مع باقي الأديان واحترموا طقوسها مثل البوذية، كما كان اليبانيون في نظر "فولتير" أكثر المجتمعات تسامحا، بدليل تعايش إثنا عشر ديانة دون صراعات تذكر، لكن بمجرد أن دخلت الديانة الثالثة عشر وهي ديانة اليسوعيين حدثت صراعات واصطدامات عنيفة انتهت بطرد اليسوعيين (المسيحيين) والانغلاق على الذات، وهذا دليل على ضرورة نبذ العنف الديني مهما كانت أشكاله وتمظهراته تحت أي مبرر كان[10].

ويعود "فولتير" إلى مؤسس فلسفة التسامح الديني الفيلسوف "جون لوكJohn Locke "(1632-1704م) الذي دعى إلى الذهاب في فلسفة التسامح إلى أقصى ما يمكن فهو يتحدث عن التسامح اللامشروط، يقول فولتير:"إنَّ التسامح لم يتسبب قط في اثارة الفتن والحروب الأهلية، في حين أنَّ عدم التسامح قد عمَّمَ المذابح على وجه الأرض"[11]، ولكن يتساءل "فولتير" كيف يمكن لثقافة عنيفة أن تتقبل التسامح؟

يعود دائما "فولتير" إلى التاريخ ليقدم اجابة مقنعة، فألمانيا مثلا لم تتمكن من الخروج من دائرة العنف اللاهوتي إلا بعد أن تم الاعتراف بكل الأديان والمعتقدات في معاهدة(وستفاليا 24أكتوبر1648)، ومن تلك اللحظة صار الفضاء الديني يتسع للكاثولكيين واللوثريين والكالفينيين، ومع اعطاء الحرية لكل دين في أن ينظم نفسه ويضبط مريديه دون استعمال القوة، هكذا آمن "فولتير" بضرورة العيش المشترك(Vivre ensemble) في ظل الاختلاف والتعدد الديني، لأنَّه:" بقدر ما يزداد عدد الطوائف والنحل تخف خطورة كل واحدة منها على حده، فالتعدد يضعفها ويقلل من شأنها، ولا سيما عندما تخضع جميعا، دونما تمييز، لقوانين عادلة تردعها، قوانين تحظر التجمعات الصاخبة، وتنهي عن الشتائم والفتنة، وتبقى فاعلة بكل قوة بحكم سريان مفعولها على الجميع"[12].

راهن "فولتير" على العقل الرشيد القادر على التمييز بين الحقيقة وبين الأوهام، فالعقل يملك قدرة تنوير الناس بهدوء عندما يخاطب في الناس إنسانيتهم وفضيلتهم، لكن هل التعصب يتساءل فولتير طبيعة إنسانية؟ القانون الطبيعي قانون مشترك بين الإنسانية كلها، من احترام واعتراف والتزام ووفاء، والقانون الطبيعي يقوم على اعتبار الإنسان غاية في ذاته، فينبغي من هذا المنطلق معاملة الغير كما نريد أن نعامل، والعمل على تأسيس منظومة حقوقية كونية تضمن للجميع نفس الحقوق على درجة من المساواة، وإذا آمنت البشرية بالفكرة فيمكن تحقيقها، هذا التصور لمفهوم التقارب الكوني بين الثقافات والشعوب هو الذي رافع من أجله الفيلسوف الألماني "كانط"عندما يقول في كتابه (مشروع

السلام الدائم):"لم تعد فكرة الحق العالمي تعتبر مفهوما وهميا ومتطرفا للحق إنما غدت بالحري تتمة ضرورية لهذا الميثاق غير المكتوب الذي يتضمن الحق المدني وحق الشعوب، وينزع باتجاه الحق العام للبشر، وبالتالي يتطور باتجاه السلام الدائم الذي يستطيع أن يعِدوا أنفسهم به بشرط واحد فقط هو أن يستمروا في التقارب"[13]. يحثنا "كانط" من خلال هذا النص على ضرورة العمل على إعادة تأسيس كل المنظومات الحقوقية في كل المجتمعات على مبدأ كونية الحقوق، لأنَّ هناك قيم مشتركة بين الناس لها طابع كوني[14] يمكن أن تقرب بين المختلف وتمنحنا فرصة العيش المشترك في أفق ايتيقي مبني على الاحترام المتبادل بين الثقافات.

وأن تصل البشرية إلى هذا المستوى من التعايش في أفق كوني، فهذا يعني ضرورة الابتعاد عن محاولة إكراه الناس على اعتناق أفكار لا يؤمنون بها أو دين غير مقتنعين به، لأنَّ تأسيس الإيمان على الكراهية يولد الحقد بين الناس فيحول ذلك دون تعايشهم، والقانون الذي يعيق فعل التعايش المشترك لا يمكن أن يكون قانون طبيعي أو قانون كوني، يقول فولتير:"إنَّ الحق في التعصب حق عبثي وهمجي إذا، إنه حق النمور وإن فاقه بشاعة: فالنمور لا تمزق بأنيابها إلا لتأكل، أما نحن فقد أفنينا بعضنا بعضا من أجل مقاطع وردت في هذا النص أو ذاك"[15]. البشر أفنوا بعضهم البعض بسبب ادعاء بعض رجال الدين بامتلاكهم الحقيقة وأن دينهم الحق وغيره مزيف، والخروج من هذا الوضع مرهون بالاعتراف المتبادل بين الشعوب في حق الاختلاف كحق طبيعي.

وإذا عدنا إلى تاريخ الشعوب القديمة مثل اليونان لوجدناها تميزت بفضيلة الاعتراف(La reconnaissance) بتعدد الديانات وهو ما يطلق عليه "فولتير" بضيافة الآلهة، فالدين ساهم في تقارب الناس والتخفيف من سلوكهم العدواني، يقول:"يبدوا لي أنَّ ما من شعب من الشعوب القديمة المتحضرة قد ضيق الخناق على حرية التفكير. كان لكل قوم دينهم،

ولكن يتراءى لي أنهم كانوا يتعاملون مع البشر تعاملهم مع آلهتهم: فقد كانوا يقرون جميعا بوجود إله أسمى، وإن كانوا يشركون به عددا لا يحصى من آلهة أدنى منه مرتبة...فالإغريق، على سبيل المثال، لم يعارضوا، بالرغم من تدينهم الشديد، إنكار الأبيقوريين للعناية الإلهية ولوجود النفس. ولن أتكلم عن الشيع والنحل الأخرى التي كانت جميعها تخالف الفكرة القويمة التي ينبغي أن تكون للبشر عن الإله الخالق، ومع ذلك كانت جميع هذه الفرق مباحة أو مغضوضا النظر عنها"[16].

لكن رغم تعدد الأديان وتعايشها في الحضارة الاغريقية إلا أنَّه حدثت انحرافات ضد الإنسانية، وكان أبرزها اعدام الفيلسوف "سقراط*Socrates*" (469 ق.م - 399 ق.م) الذي راح ضحية دفاعه عن فكرة تسامي الآلهة، وكان هذا أخطر انحراف عرفته الثقافة اليونانية، فهو انحراف أو عنف ضد حرية الفكر، وإن كان "سقراط" في حقيقة الأمر ضحية أعدائه وخصومه الذين لم يتحملوا وصفه لهم بالجهل، فكالوا له التهم بأنَّه كان ضد دين أثينا، لكن بعد موت "سقراط" تمت عملية تصحيح الأخطاء بنفي كل من أجرم في حق الفلسفة وحرية الفكر[17]. كما عرف الرومان التسامح ومارسوه فالحكيم"شيشرون Marcus Tullius Cicero " (106ق م -46ق م)كان يمارس الشك في كل شيء دون قيد، ووصل الحد ببعض المفكرين إلى نفي وجود الله، لكن لم تتعرض هذه الأفكار والآراء للتعنيف أو للنبذ، والرومان لم يكونوا متدينيين بقدر ماكانوا يميلون إلى بناء الحضارة وحب الحروب لكنهم لم يمنعوا الدين عن حياة الناس، مما يعني أنهم جعلوا من التسامح مبدأ مقدس يُحتكم له في فض النزاعات بين الأمم[18]، ومهما تكن الجرائم التي ارتكبت باسم الدين إلا أنَّ المجتمعات وعبر التاريخ قد عملت على تصحيح أخطائها، لهذا يتساءل فولتير متى نبدأ في تطبيق مبادئ الإنسانية الصحيحة؟[19]

ينبغي الخروج من منطق التبرير إلى منطق تأسيس الثقافات على مفاهيم إنسانية كونية، لأنَّ البعض يحاول تبرير العنف برجوعه إلى تاريخ العنف، إلاّ أنَّ العنف في التاريخ لا

يعطينا حق ممارسة الاضطهاد اليوم، فنحن مطالبون بممارسة النقد والتفكيك لفضح وتعرية بعض الأساطير(Les mythes) التي وظفت في عملية تزييف وعي الناس باسم الدين، لهذا كان "فولتير" يرى أنَّه لو نظرنا في التاريخ ووقفنا عند حدود الجرائم التي ارتكبت في حق الإنسان لاكتشفنا بأنَّ البشرية قد عاشت جزء كبير من الجحيم في الدنيا[20] وإذا كان هذا هو تصور فولتير لاشكال التسامح والتعايش، فكيف يمكننا الاستفادة اليوم من أطروحته بهدف التأسيس لتعايش حقيقي بين الشعوب؟

ثانيا: الحوار سبيل الخروج من ضيق العنف:

إنَّ تحول البشرية من ضيق العنف والتطرف والإرهاب إلى أفق الحوار والعيش المشترك في ظل مقولة الاعتراف(La RECONNAISSANCE) بالمختلف والمغاير مرهون بفتح حوار جدي ومسؤول بين الأديان على تعددها وكثرتها، وهو الأمر الذي أقره "هانس كونغ *Hans Küng* " من مواليد(1922م) وهو أحد اللاهوتيين الألمان من أصول سويسرية في كتابه المتميز" مشروع أخلاقيات كوكبية: السلام العالمي من خلال السلام بين الأديان projet d'éthique planétaire: la paix mondiale par les paix entre les religions " أكد فيه على أهمية التسامح، حيث يقول: "لا يمكن تصور سلام عالمي بدون التأسيس لسلام بين الأديان، ولا يمكن الحديث عن سلام بين الأديان دون تفعيل حوار حقيقي ومسؤول بين الأديان الكبرى[21]".

المطلوب في نظرنا العمل على مأسسة كل مظاهر وأشكال الحياة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية ليتحقق فعل التعايش الفعلي، وهذا ما رافع من أجله كذلك فيلسوف العدالة الأمريكي "جان راولز John Rawls "(1921-2002م) في مشروعه الفلسفي، حيث عمل جاهدا على أخلقة العقد الاجتماعي والسياسي ليكون بمثابة الافق الذي يضمن للأفراد حق ممارسة حرياتهم الفردية في اطار الانتماء للجماعة[22]. ولا يمكن

للمجتمع أن يستمر خارج القانون وخارج العنف، فخارج القانون هناك عنف مضاد، وهو عنف الأفراد. كل هذه الأطروحات التي استدعيناها في قراءتنا لظاهرة العنف التي تعيشها المجتمعات المعاصرة تؤكد على أنَّ أخطر عنف هو ذلك العنف الذي يمارس باسم المقدس وباسم بامتلاك الحقيقة، وكلها تراهن للخروج من هذا الوضع على مبدأ الاعتراف المتبادل بحق الاختلاف كمبدأ طبيعي.

والثقافة العربية هي الأخرى صارت رهينة العنف بكل أشكاله، فنحن نعيش في عالم صار عنوانه العنف والعنف المضاد، عنف ديني وفكري وسياسي وثقافي وإعلامي، وإذا لم يتدخل العقل في الظاهرة عبر التفكيك والنقد فإننا نتجه إلى أزمة مركبة يصعب فهم حقيقة القوى الفاعلة والمحركة لها، وفي ظل هذا الوضع يوجد من المفكرين من يحاول أن يقدم بعض الحلول والمقترحات العقلانية ، فنجد مثلا المفكر اللبناني "علي حرب" يؤكد على ضرورة إعادة بناء كل الثقافات على منطق التعدد والاختلاف، بكون الاختلاف ظاهرة طبيعية ينبغي مأسستها وتقنينها وأخلقتها بهدف اغناء الثقافات البشرية، لأن الحديث عن وحدة البشرية لا يعني الغاء الاختلاف وإنما تنميته وتوسيع دائرته، يقول:"الوحدة الغنية فهي التقاء النظراء المختلفين، لا لكي يتطابق الواحد مع الآخرين ويمسي نسخة عنهم، بل لكي يشتغلوا على اختلافاتهم"[23]. كما نجد المفكر المغربي "محمد عابد الجابري"(1935-2010م) هو الآخر اشتغل بموضوع التسامح ودعى إلى ضرورة اعادة بعث الروح في القيم الإنسانية المشتركة، وهذا يدخل في دائرة وظيفة الفلسفة اليوم، فإلى جانب خلق المفاهيم تقوم الفلسفة :"بإعادة بعث الحياة في مفاهيم سابقة أو إعادة بناء مفاهيم سائدة بعد فحصها ونقدها..وأيضا تحليل ونقد مفاهيم طارئة يقذف بها إلى ساحة الفكر السياسي الراهن، "فكر الوقت المؤقت"،...ومن المفاهيم التي تحتاج إلى بعث الحياة فيها مفهوم...التسامح"[24].

دعى "الجابري" إلى ضرورة إعادة بناء مفهوم التسامح بناءا فلسفيا وتطهيره من الدلالة اللاهوتية، على طريقة فولتير، لأنَّ مجتمعاتنا بأمس الحاجة إلى اشاعة ثقافة التسامح والاعتراف لكي تتمكن من العيش المشترك في ظل التعددية، وكل ثقافة تأسست على منطق التعدد والاختلاف يمكنها أن تضمن درجة كبيرة من الانسجام والتوافق بين عناصر هويتها، في حين الثقافة التي تأسست على منطق رفض التعدد والاختلاف فتظل مهددة بالتفكك والصراعات الداخلية، لهذا:"قد يكون من المناسب التدقيق في مفهوم "التسامح"بربطه بالفلسفة نوعا من الربط، باعتبار أنَّ الفلسفة هي البوتقة التي تمتحن فيها المفاهيم والمجال الحيوي لإغنائها ومنحها القوة، قوة التأثير في الفكر والسلوك"[25]. وقد تساءل "محمد عابد الجابري" عن علاقة الفلسفة بمفهوم التسامح؟ كما تساءل عن إمكانية توظيف هذا المصطلح للتفكير فلسفيا في القضايا المعاصرة الساخنة؟

وإذا كان التسامح قبول موقف الآخر المغاير والمختلف دون التعصب للأنا، فإن الفلسفة بحث عن الحقيقة دون الادعاء بامتلاكها، ومادامت الفلسفة لا تدعي امتلاك الحقيقة فهي ضمنيا تعترف بتعددها واختلافها مما يجعلها متسامحة مع المختلف، كما أن التفكير الفلسفي يقوم على مبدأ الشك واستبعاد المطلق مما يجعلها في جوهرها متسامحة مع المختلف، وهذا ما جعل من"الجابري" يؤكد على أن الفلسفة هي الفضاء الحيوي للتسامح، لكن الفلسفة لم تكن في نظر الجابري متسامحة طيلة تاريخها، وقد استند في ذلك لمقولة "كارل ياسبرس Karl *Jaspers* "(1883-1969م) الفلسفة غالبا ماخانت نفسها"، ففي الكثير من المحطات عمدت على تجاوز حدود البحث في الحقيقة إلى الادعاء بامتلاكها[26].

وعندما تنحدر الفلسفة إلى درجة التلقين تتحول إلى أيديولوجيا دوغمائية وتتنكر لماهيتها الحقيقية وهي التسامح والبحث المستمر عن الحقيقة وإبداع المفاهيم وإعادة

بنائها، أي أنَّ الفلسفة عندما تتخلى عن الشك المنهجي والنقد العقلاني تكون أقرب إلى الأيديولوجيا منها إلى التسامح ويتحول التسامح إلى اللاتسامح، يقول الجابري:"تتحول الفلسفة في –نظرنا- إلى أيديولوجيا كلما تخلت عن مهمتها النقدية واستسلمت للأمر الواقع تعكسه بوصفه الحقيقة"[27]، ويعتبر "الجابري" "ابن رشد"(1126-1198م) في تراثنا قمة الفيلسوف المتسامح، لأنه آمن بتراكم المعارف والتجارب البشرية، ومن الأدلة على تسامح "ابن رشد" نقده لأبي حامد الغزالي لأنه لم يسع في تفهم موقف الخصوم، ويحكم بفساد آرائهم دون النظر في المقدمات التي ينطلقون منها[28]، و"إبن رشد" في نظر " الجابري" من الفلاسفة القلائل الذين ارتفعوا بمفهوم التسامح إلى مستوى العدل[29].

ولكي يكون التسامح مفهوما فلسفيا ينبغي إعادة بنائه على أرضية نقدية لكي يؤدي وظيفته الحقيقية وهي احراج التطرف والعنف والإرهاب والتعصب والانغلاق وتعرية كل الوسائل المستعملة في ذلك وفضح القوى المستبدة والمهيمنة، وهذا لا يتأتى إلا إذا أسسنا لثقافة تؤمن باحترام الحق في الاختلاف على الطريقة الرشدية، يقول ابن رشد:"من العدل أن يأتي الرجل من الحجج لخصومه بمثل ما يأتي به لنفسه" وإعادة بناء مفهوم التسامح في أفق فلسفي من شأنه أن يحرج التطرف الديني والعرقي والتفكير الأحادي الذي لا يعترف بالحق في الاختلاف كما يفضح مقولة صراع الحضارات، وتأسيس الثقافة على مبدأ الحق في الاختلاف والحق في التعبير عن الرأي بحرية هي الشروط الابستيمولوجية القادرة على تقليص دوائر الاستبداد في نظر "علي أومليل"[30].

والتسامح ضرورة براغماتية تقتضيه طبيعة الحياة السياسية المعاصرة، فهو الآلية التي تساعد السلطة السياسية على ايجاد حلول للمشكلات الاجتماعية التي تنشأ بين الأفراد نتيجة التنوع والاختلاف، فهو البديل الطبيعي عن العنف الناتج عن ثقافة الاقصاء وعدم الاعتراف بحق المغاير في الاختلاف[31].

4. خاتمة:

إن سؤال العنف والتسامح سؤال له أبعاد انطولوجية وأخرى ابستيمولوجية، لأنه يتعلق بحياة الإنسان مباشرة وتمظهراتها الثقافية والسياسية والفكرية والدينية، كما أنه صار موضوعا للتفكير الفلسفي والسوسيولوجي والسياسي، لهذا وخلال مسارنا عبر هذا المقال لاحظت أن أغلب الفلاسفة يدعون إلى ضرورة تدخل العقل في الظاهرة لمعرفة أسبابها الفعلية ومن ثم يصبح بالامكان التحكم فيها، ويمكننا بعد هذه الدراسة تحديد أهم النتائج في النقاط التالي:

-العنف ظاهرة عرفتها كل المجتمعات قديمها وحديثها، وكل المجتمعات صارت معنية بالتفكر في الظاهرة فلسفيا وسوسيولوجيا وسياسيا.

- العنف يمارس باسم المقدس كما يمارس باسم الهوية.

-ضرورة اعادة تأسيس كل الثقافات على مبدأ الحق في الاختلاف كونه مبدأ طبيعي.

-التقارب بين الشعوب مرهون بالاعتراف المتبادل في أفق ايتيقي.

-ينبغي اعادة النظر في المنظومات الحقوقية على أرضية كونية تعامل فيها الإنسان كغاية اينما كان في اطار حق المواطنة العالمية.

-ضرورة اعادة النظر في البرامج التربوية وتأسيسها على المبادئ التالية: الاختلاف الطبيعي، الاعتراف، الاحترام، النقد، العقلنة، الانفتاح على ماهو كوني.

الهوامش:

1 - Hans-Georg Gadamer ،Vérité *et méthode*, Les grandes lignes d'une herméneutique philosophique, éd. intégrale, Paris, Seuil, 1996.p51.

2- فولتير، رسالة في التسامح، ترجمة هنريت عبودي، داربترا للنشروالتوزيع، سوريا دمشق،ص10

3- فولتير، رسالة في التسامح، المرجع نفسه، ص19.

4- المرجع نفسه، ص29.

5- المرجع نفسه، ص30

6- بول ريكور، سيرة الاعتراف، ثلاث دراسات، ترجمة فتحي إنقزو، مراجعة محمد محجوب، منشورات دار سيناترا، ط1، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010م، ص155.

7- هاشم صالح، مدخل للتنوير الأوروبي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2005م، ص68-69.

8- فولتير، رسالة في التسامح، مرجع سابق، ص31.

9- المرجع نفسه، ص39.

10-المرجع نفسه، ص38.

11-فولتير، رسالة في التسامح، مرجع سابق، ص39.

12-المرجع نفسه، ص42.

13- ايمانويل كانط، مشروع السلام الدائم، ترجمة نبيل خوري، دار صادر، بيروت، 1985م، ص56.

14 -**Luc Ferry et Alain Renaut, le fondement universel des drois de lhomme, in communications,43.1986, p44.**

15- المرجع نفسه، ص48.

16- المرجع نفسه، ص49.

17- المرجع نفسه، ص51.

18- المرجع نفسه، ص55.

19--المرجع نفسه، ص81.

20- المرجع نفسه، ص83.

21 -Hans Kung, projet d éthique plantaire: la paix mondiale par les paix entre les religions, paris : seuil.1991 p 11-10.

22 -John Rawls, in F. Chatelet, E. Pisier, O. Duhamel, Dictionnaire des œuvres politiques, P.U.F, 1ere édition, 1986, p-p 975-981.

23--علي حرب، الأختام الأصولية والشعائر التقدمية، مصائر المشروع الثقافي العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، 2001م، ص148.

24-محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر: العولمة- صراع الحضارات-العودة إلى الاخلاق- التسامح- الديمقراطية ونظام القيم-الفلسفة والمدينة، مركز دراسات الوحدة العربية،ط1، بيروت، 1997، ص11.

25-المرجع نفسه، ص19.

26-محمد عابد الجابري، قضايا الفكر المعاصر، ص20.

27-محمد عابد الجابري، قضايا الفكر في الفكر المعاصر، مرجع سابق، ص21.

28- ابن رشد، تهافت التهافت، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف،ط3، القاهرة، 1980م، ص369.

29-محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مرجع سابق، ص23.

30-علي أومليل، في شرعية الاختلاف، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1993م، ص10-11

31 -Habermas Jürgen, De la tolérance religieuse aux droits culturels, in, Cités, 2003/1n,13, PUF, p156-161.

*** *** ***